الاكتشافات الأثرية على الجانب الشرقي لنهر الأردن

د.محمد وهيب*

مقدمة

أكدت الاكتشافات الأثرية على الجانب الشرقي لنهر الأردن وجود العديد من المواقع الأثرية والتي أقيمت في منطقة الضفة الشرقية لنهر الأردن وخاصة على جانبي وادي الخزار.

وتبين من خلال تفحص نتائج التنقيبات أن المخلفات العمائرية التي تم الكشف عنها ترجع في تاريخها إلى فترتين تاريخيتين هما:

- العصر الروماني
- العصر البيزنطي

وفي هذا البحث سوف يتم التركيز على نتائج الدراسات التي جرت في منطقة الحافة الشرقية لموقع المغطس وخاصة الموقع المتواجد قرب حافة النهر مباشرة والذي أطلق علية الرحالة والمؤرخين القدامى والمحدثون اسم موقع عماد السيد المسيح أو (بين عنيا شرق نهر الأردن).

ويمكن إجمال ما تم الكشف عنه على حافة النهر الشرقية بما يلي:

١. الكنيسة البيزنطية الأولى: حيث أقيمت فوق أقواس ترتكز على أعمدة حجرية ومن المرجح أنها أقيمت خلال فترة القرن الخامس والسادس الميلادي.
٢. الكنيسة الثانية: حيث تم الكشف جزئياً عنها وما زالت أعمال التنقيبات جارية في هذا الموقع بهدف الحصول على نتائج دقيقة وترجع في تاريخها إلى العصر البيزنطي المتأخر.
٣. الكنيسة الثالثة وهي أكبر الكنائس المكتشفة في الموقع وترجع في تاريخها إلى العصر البيزنطي المتأخر.
٤. الكنيسة الصغيرة وهي أصغر الكنائس المكتشفة في الموقع حيث ومن المرجح أنها أقيمت لغرض تذكاري وليس لإقامة الطقوس والشعائر الدينية.

وفيما يلي عرض لما ذكره الرحالة القدامى حول هذا الموقع بحسب التسلسل التاريخي.

أوريجون

عاش اوريجون خلال الفترة ما بين ١٨٥-٢٥٤م حيث علق على ما ورد في الكتاب المقدس (يوحنا ١: ٢٨) هذا كان في بين عنيا عبر الأردن حيث كان يوحنا يعمد فلقد وجد اوريجون أن اسم بين عنيا قد ذكر في معظم المخطوطات القديمة إلا أنه أشار إلا ضرورة قراءة اسم بين عبارا بدل بيت عنيا حيث اقتنع بهذا الاسم أثناء بحثه واشار إلى أن بيت عنيا ما هي إلا قرية العيزرية الواقعة إلى الشرق من مدينة القدس ولم يجد

* .محمد وهيب ــ الجامعة الهاشمية ــ الأردن.

ما يشير إلى أن بيت عنيا تقع قرب نهر الأردن، بل أقترح أن بين عنيا تقع إلى الشرق من مدينة القدس، ويضيف أنه وقرب نهر الأردن كانت تتواجد قرية بيت عبارا حيث كان يوحنا يعمد.

ويتضح أن اوريجنوس لم يبحث بنفسه عن بيت عنيا حيث أنه لم يقم بوصول منطقة نهر الأردن بل أعتمد على ما وصفه الآخرون بهذا الصدد ولعل هذا هو سبب الارتباك في وصفه وإطلاق تسمية بيت عبارا وتعني بيت العبور كناية عن عبور نهر الأردن، بينما بيت عنيا مشتقة من تسمية بيت القارب ولربما كان على نهر الأردن معبر وقارب له شهرة أو مكان لعمل القوارب قرب المعبر مما أدى إلى إطلاق هذه التسمية، وهذا الإسم كان ما زال معروفاً ومستخدماً حتى زمن اوريجون. حيث كان هذا الاسم قبل قيام اوريجون بإثارة موضوع اسم هذا المكان البسيط لأحد أماكن العبور على نهر الأردن، ومن الواضح أنه كان يتواجد بجانبه قرية ما، وأن اسم هذه القرية قد تلاشى خلال الفترة التي عاش فيها اوريجون حيث أنه لم يتعرف عليه كما أسلفنا إلا أن أهمية المكان وذاكرته لدى الكثيرين كمكان العماد بقيت واستمرت وعليه يتضح أن بيت عنيا استمرت خلال فترة ما بعد اوريجون واقيمت فيما بعد على إنقاضها مباني دينية استمرت خلال العصر البيزنطي.

يوسيبوس

استخدم يوسيبوس خلال الفترة ٢٦٥-٣٤٠م نفس القراءة التي استخدمها اوريجون (بيت عبارا) ويضيف (وكما يوضحون لك فإنه إلى اليوم المكان الذي اشتاق الكثير من الأخوة للإغتسال والاستحمام به).

وهكذا نجد أن يوسيبوس قد أخذ عن اوريجون نفس التسمية للمكان دون تمحيص لحقيقة الموقع والوقوف عليه أو حتى التجول فيه إلا أنه أكد على حقيقة وجود المكان قرب نهر الأردن.

والسؤال الذي يطرح الآن أين هي بيت عنيا التي أصبحت فيما بعد بيت عبارا وللإجابة عن هذا السؤال نعود إلى أقوال الرحالة

الرحالة بوردو (٣٣٣م)

يقول رحالة مدينة بوردو من فرنسا (أن الموقع المقدس يقع إلى الشمال من البحر الميت على مسافة خمسة أميال) إن الأميال الرومانية الخمسة والتي ذكرها بوردو تعادل أربعة أميال ونصف إنجليزية وبذلك تصل المسافة إلى منطقة النهر (العماد التقليدية) ومقابلها يتواجد دير يوحنا المعمدان على الجانب الشرقي من النهر حيث أقيم على مسافة أقل من خمسين متراً شرق النهر وحوالي خمسة أميال من أريحا وقد تم الكشف عن أربعة كنائس على حافة النهر الشرقية في هذا المكان وبذلك يتضح دقة وصف الرحالة بوردو في أن الجانب الشرقي كان له الدور الأكبر من المنشآت ذات الوظيفة الدينية.

الرحالة أيجيريا (٣٨٥م) والتي بدأت رحلتها من القدس بهدف زيارة الأماكن الدينية المقدسة وخاصة على الجانب الشرقي لنهر الأردن حيث وصلت إلى أريحا ومن ثم إلى نهر الأردن حيث ذكرت أنها وصلت إلى منطقة نهر الأردن ثم الجانب الشرقي من نهر الأردن ثم عبرت حتى وصلت إلى ليفياس المسمى حالياً (تل الرامة) ولعل من المناسب القول أن هذا المكان (مكان العبور) مناسب ويتوافق مع بيت عبارا التي ذكرها اوريجون ويوسيبوس لكن أيجيريا لم تذكر شيئاً عن مكان المغطس وذلك أنها كانت منشغلة بالوصول إلى موقع جبل نبو الذي ذكرت أمه يعني لها أهمية خاصة والراجح أن ايجيريا قد أشارت باختصار لهذا المكان دون الشرح المسهب.

الرحالة جيرمو (٤٠٤م)

ما ذكره هذا الرحالة خلال حديثه عن القديسة باولا والتي بدأت رحلتها من القدس إلى نهر الأردن حيث أنها توقفت في موقع جلجال قبل وصولها نهر الأردن ومن ثم وصفها لمنطقة النهر وتلك البقعة المقدسة وهذا تأكيد لأهمية المكان عبر التاريخ.

الحاجة مريم المصرية (٤٢١-٤٣٢م)

أشار الكثيرون من الرحالة إلى قصة الحاجة مريم التي عاشت ما بين ٤٢١-٤٣٢ حيث كانت تقييم على الحافة الشرقية لنهر الأردن وتم الكشف عن بقايا بناء ذكر أنه يرجع للحاجة مريم.

الرحالة ثيودوسيوس (٥٥٠م)

وهو أول الرحالة الذين ذكروا وجود مخلفات عمائرية على أرض الواقع على الجانب الشرقي لنهر الأردن حيث يقول (هناك على الطرف البعيد تتواجد تله صغيرة) اسماها ثيودوسيوس Armona وهي هضبة صغيرة تتوافق مع وصف بوردو.

لقد أكد الرحالة الإثنين أن مكان العماد يقع على خمسة أميال إلى الشمال من البحر الميت، وهناك العمود الرخامي والصليب المعدني المثبت علية الذي يمثل مكان عماد المسيح زمن انستايوس الذي حكم ما بين ٤٩١-٥١٨م، وبذلك فإن الرحالة يؤكدون على وجود الأبنية والتي تم الكشف عنها مؤخراً في هذا المكان.

الرحالة بوركوبيوس

معاصر لفترة ثيودوسيوس وهو يشير إلى العديد من المباني الكنسية الكبيرة والصغيرة التي بناها الإمبرطور جوستنان حكم جوسينان بين ٥٢٧-٥٦٥ (هناك في دير يوحنا المعمدان على نهر الأردن بنى (خزان) ويلاحظ أن هذا ما هو إلا سخاء من الإمبراطور في المنطقة المقدسة. وقد تم الكشف حديثاً عن الجانب الشرقي من نهر الأردن على الخزان الذي بناه الإمبراطور جوستبنان الأمر الذي يؤكد حقيقة أهمية الموقع والمكان باعتباره مقدساً ذو خصوصية تسابق الأباطرة والحكام نحوه لتقديم العون والمساعدة للحجاج والزائرين إليه.

الراهب Epi phanius (٧٥٠-٨٠٠م)

لقد اعتمد الراهب على المصادر التاريخية ولم يشاهد ما تحدث عنه فهو يقول (على حافة النهر تتواجد كنيسة البشير) إضافة إلى كنيسة كبيرة أخرى. فهو بذلك يشير إلى الكنيسة التي بناها أنستايوس على الجانب الشرقي لنهر الأردن حيث كانت مشاهدة في ذلك الوقت إضافة إلى كنيسة أخرى كانت قائمة مجاورة لها، علماً أن ما تم الكشف عنه حالياً هو أربعة كنائس لغاية الآن.

الرحالة من بياتشانزا (٥٧٠م)

فقد ذكر هذا الرحالة الأحداث الدينية المرتبطة بمكان عماد السيد المسيح ويضيف (وفوق الأردن هناك دير كبير جداً مكرس ليوحنا المعمدان وله جناحان للحجاج حيث تم بناء هذين الجناحين نظراً لازدياد أعداد الحجاج الزائرين للموقع حيث أكدت الشواهد ما يشير إلى تزايد أعداد الحجاج من خلال حضور أعداد كثيرة لعيد الغطاس والذي يبدأ عادة في الليل مساء قرب النهر.

ويلاحظ أن العمود الرخامي الذي ذكره ثيودوسيوس قد اختفى وظهر بدلاً منه صليب خشبي في نفس المكان.

ويضيف هذا الرحالة بشكل ملفت للنظر ومميز ما يلي (على الطرف البعيد من نهر الأردن يوجد كهف يوحنا ويبعد مسافة ميلين وكان الياس في هذا الوادي عندما جلب إليه الغراب الخبز واللحم) وهكذا فإن وادي الخرار قد تم الإشارة إليه بشكل واضح وكذلك ينابيع المياه الجارية.

وخاصة الإشارة إلى النبع الذي عمد فيه يوحنا، وإجمالاً هذه الينابيع ضعيفة حالياً فغالباً ما تصل نهر الأردن خلال فصل الشتاء فقط، وفي الوادي على مسافة ميل وربع من النهر يتواجد جبل مار إلياس، وبذلك تم الإشارة إلى موقع آخر حيث تم اكتشاف مجموعة من الكنائس والأرضيات الفسيفسائية في منطقة تل ما الياس وهذا بحد ذاته تأكيد لما تم الكشف عنه في الجانب الشرقي.

Gerogian Calendar (٦٣٨م)

وتعتبر من أقدم المصادر حيث تشير إلى أن شرق نهر الأردن هو مكان التعميد وبذلك تؤكد هذه الوثائق أهمية الجانب الشرقي لنهر الأردن خلال فترة القرن السابع الميلادي حيث كانت تقام الاحتفالات والطقوس الدينية.

خارطة مادبا (٥٠٠-٦٠٠م)

وقد مثلت هذه الخارطة أقدم الخرائط التي تناولت فترة العصر البيزنطي حيث مثل نهر الأردن على الخارطة وكذلك عدد من الكنائس وأظهرت الخارطة أهمية موقع المغطس حيث تم تمثيل نبع ماء على الجانب الشرقي من نهر الأردن إضافة إلى برية تتواجد فيها عدد من الحيوانات إضافة إلى رسم كنيسة على الجانب الغربي.

ويتضح أن الدخول إلى الجانب الشرقي خلال تلك الفترة كان يتم من خلال كنيسة بالنسبة للقادمين من الجانب الغربي، حيث سمي الموقع بـ (بيت عبارا) أي بيوت العبور نحو الموقع الرئيسي على الجانب الشرقي وهو (بيت عنيا) حيث كان المعمدان مقيماً وحيث تتواجد الكنائس والتي من الراجح أنها تعرضت لفيضان نهر الأردن مما استدعى خطورة زيارتها في ذلك الوقت الأمر الذي يبرر عدم تمثيلها على خارطة مادبا.

John Moschu (٦١٩م)

في زمن بطريركية الياس الذي توفي عام ٥١٨م حدثت قصة راهب خلال فترة العصر البيزنطي وتنتهي القصة بالقول (أن المكان اسمه صفصاف) وعليه فإن صفصفا Sapsas فهي اختصار ل صفصاف Sapsaphas التي ورد ذكرها على خارطة مادبا والتي تشير إلى هذا المكان وكذلك موقع دير التعميد على الجانب الشرقي القريب من البحر الميت، وعليه فإن حقيقة وادي الخرار تعتبر هامة وربط هذا الدير مع وادي الخرار يعتبر أكيداً وواضحاً بسبب الينابيع وهكذا نجد أن الرهبان كانوا يقيمون في هذا الوادي المسمى صفصاف لتخليد ذكرى القداسة الدينية وهم بذلك يقيمون في كهوف، وقد تم حديثاً الكشف عن بعض هذه الكهوف المقدسة على أطراف وادي الخرار كانت تستخدم لإقامة الرهبان.

في عام ٦٣٨

بعد الفتح الإسلامي للمنطقة تراجعت أهمية الجانب الشرقي واصبح الجانب الغربي هو محط الأنظار، وبدون شك لأن البرية تقع على الجانب الشرقي من نهر الأردن أصبحت غير آمنة مع مرور الزمن بالنسبة للحجاج والزوار بسبب خوفهم من الحيوانات المفترسة إضافة إلى تراجع النفوذ السياسي البيزنطي عن هذه المنطقة وتبدل الأحوال.

آر كلوف (٦٧٠م)

يعتبر هذا الرحالة نقطة التحول، فيذكر أن مكان التعميد يقع على الجانب هذا من نهر الأردن ورغم عدم دقة وصفة إلا أنه يذكر كنيسة حيث يقول (على حافة النهر كنيسة صغيرة مربعة في المكان الذي وضع فيه المسيح ملابسه قبل أن ينزل إلى النهر وهناك جسر حجري يمتد عبر النهر إلى مكان العماد. وفي هذا المكان المقدس يتواجد صليب خشبي مرتفع يصل إلى عنق رجل طويل القامة).

وهو بذلك يشير إلى الكنيسة الصغيرة (الكنيسة الرابعة) التي تم الكشف عنها من خلال أعمال التنقيبات (١٩٩٧-٢٠٠٢) مما يعزز ويؤكد أهمية الاكتشافات الأثرية من نهر الأردن.

ويلبلاد (٧٢٤-٧٢٦م)

وجد ويلبلاد أن الكنيسة ما زالت في مكانها على ضفة النهر الشرقية وأصبحت دلالة على المكان الذي تعمد فيه المسيح وعليه فإن مكان العماد كان ما زال معروفاً خلال القرن الثامن الميلادي في نفس المكان.

دانيال (١١٠٦م)

أكد ما ذكره السابقون مع تركيزه على وجود النبع العذب المسمى نبع يوحنا المعمدان.

ثيودوروك (١١٧٢م)

أشار إلى نهر الأردن وإلى حجر يعتقد أن السيد المسيح قد وقف عليه عندما تم تعميده.

ولبراند اودبنرغ (١٢١٢) يشير أن خراباً ودماراً قد أصاب الكنيسة الصغيرة وأن البقايا العمائرية بدأت تختفي بشكل تدريجي من المنطقة بفعل فيضان نهر الأردن المستمر إضافة إلى التراجع الحضاري بشكل عام.

خريطة فلورنس

نجد في هذه الخارطة ما يؤكد الاكتشافات الأثرية الجارية على الجانب الشرقي من نهر الأردن، وترجع هذه الخارطة في تاريخها إلى القرن الثاني عشر، ويظهر موقع المغطس على الجانب الشرقي لنهر الأردن وعلى مسافة قصيرة جداً من حافة النهر حيث كتبت على الخارطة في هذا الموقع Bethabara Ubi erat Johannes baptizans

وهذه الخارطة لا تمثل نتاج رسام أو شخص بل تعكس أسماء أماكن ومواقع هامة وتاريخية كانت معروفة في ذلك العصر، وكان من بين هذه الأماكن بدون شك موقع المغطس.

وإذا ما تم الاستدلال على مكان إقامة يوحنا المعمدان فإن تموراً كثيرة سوف نجد لها حلاً وخاصة أن الموقع مرتبط بهذا النبي (يحيى) حيث أشار الكثير من الرحالة والمؤرخين إلى أن يوحنا المعمدان كان يقيم عمل الجانب الشرقي لنهر الأردن، ويشير مؤرخ القرن ٩-١٠م Bios di Constantino أن القديسة هيلانه أم الإمبراطور قسطنطين قد زارت كهف المعمدان على الجانب الشرقي لنهر الأردن وأمرت ببناء كنيسة عليه وأخرى مقابلة.

ويؤكد Grethenios أن الكهف يقع على الجانب الشرقي من نهر الأردن وأن هذا الكهف كان متعارفاً عليه لدى الكثيرين.

وكان من بين الذين أكدوا أن وجود الموقع على الجانب الشرقي من نهر الأردن هو الأب فيدرلان وذلك في عام ١٩٠٢ عندما قام زيارة إلى عدة أماكن تقع شرقي نهر الأردن بهدف التأكد من حقيقة تلك المناطق ودورها التاريخي وقد تمكن فيدرلان من وصول (تل الخرار) وهو التل الذي كشف عنه حديثاً وأكدت نتائج التنقيبات وجود بقايا من العصر الروماني والبيزنطي، وشاهد بقايا بعض المباني والقطع الحجرية المشذبة.

كما قام بوزي Buzy عام ١٩٣١ بزيارة إلى هذا المكان وشاهد بقايا بيوت وحجارة مشذبة أرضها إلى العصر البيزنطي بدلالة الكسر الفخارية والحبيبات الفسيفسائية التي وجدها.

وتعتبر هذه الاكتشافات الأثرية على الجانب الشرقي لنهر الأردن أحدث ما تم التوصل إليه خلال الأعوام الأخيرة وهي تمثل بمجموعها مركزاً وتجمعاً للمباني كان يقدم الخدمات للحجاج والزوار ورجال الدين في واحدة من أخفض بقايا العالم عن مستوى سطح البحر إلى الشمال من البحر الميت والتي أطلق عليها قديماً عدة أسماء ومنها اسم بيت عينا عبر الأردن، وصفصاف، وحالياً تسمى مغطس السيد المسيح.

كما قام آبل Abel عام ١٩٣٢ بإجراء دراسة ميدانية لموقع المغطس على الجانب الشرقي لنهر الأردن حيث أشار إلى عدة مواقع ذات مخلفات عمائرية هامة تعرضت للدمار والزوال، إلا أنه لم يجري أي تنقيبات أثرية في الموقع.

كما قام كل من ساور وابراهيم وياسين من علماء الآثار الأردنيين بإجراء مسح أثري ميداني لموقع تل الخرار وهو المكان الذي تشير إليه الدراسات بالأهمية وأكدت النتائج أن التل يرجع إلى تاريخه إلى العصرين الروماني والبيزنطي.

ومنذ عام ١٩٩٦ قام كاتب المقال بإجراء مواسم للتنقيبات الأثرية في الموقع استمرت ست سنوات متتالية واظهرت مخلفات عمائرية ترجع إلى عدة عصور تاريخية حيث تم التنقيب في المواقع التالية:

١. تل الخرار/ المنطقة العليا.
٢. محطة الحجاج/ المنطقة الوسطى.
٣. حافة نهر الأردن/ المنطقة السفلى.

وأظهرت نتائج التنقيبات الأثرية توافق وانسجام بين ما وصفه الرحالة والمؤرخون القدامى وبين ما تم التوصل إليه حيث تم الكشف عن:

١. كنائس ذات أرضيات فسيفسائية ملونة وغير ملونة.
٢. بقايا غرف سكنية كان يقيم فيها المقيمون والزائرون.
٣. كهوف استخدمها الرهبان للإقامة والتعبد.
٤. نظام مائي يتكون من قنوات وآبار وخزانات.
٥. منشآت ذات أغراض دينية مثل برك العماد.

REFERENCES

ABEL, R 1932 Exploration Du Sud-Est de la Vallee du Jordanian (suie et fin): 237-263

AMER, k, HAMDAN, K, HELMS, S AND Archaeological survey of the East Coast of the Dead Sea Phase 1:

MOHAMADIEH, L. 1996 Suwayyma az-Zara and Umm Sidra, ADAJ 40: 424-449

AVI-YONAH 1954 Madaba Mosaic Map, Jerusalem

CLAMER, C 1986 Ain ez-Zara Excavations, ADAJ, 33: 219-225

FINGGAN, B. 1969 Archaeology of the New Testament New Jersey

JAMES, W.F., DAVID, M AND YASSINE, K 1996 tell Nimrine: Preliminary Report on the 1995 Excavations and Geological Survey, ADAJ 40: 271-293

HARDING, L Bassat el-Kharra, Unpublished Report, vol B: 11-9

HODGE, A. 1992 Roman Aqueduct and water supply, Great Britain

POLITIS, K.K. 1988 Excavations at Deir Ain Abata ADAJ 33: 227-233

PRAG, K. 1971 A study of Intermediate Early Bronze Age in Transjordan, syria and Lebanon, oxford, Unpublisheh Ph.D. Thesis

PRAG, K. 1990 Preliminary Report on the Excavations at Tell Iktanu, Jordan, ADAJ 34: 119-130

MORTON, H 1934 In the steps of the Master, London

WAHEEB, M. 1997 Report on the Excavations at Wadi el-Kafrein Southern Ghours (al Aghwar) ADAJ, 41:463-468